فضل الجاحظ على من سواه في تطوير مفهوم الرسالة الأدبية

د. بلقاسم دكدوك
(أستاذ محاضر) قسم اللغة العربية وآدابها
جامعة أم البواقي

لقد اعتدنا أن نسمع – في الأصول القديمة كما في الأبحاث المحدثة – أن فن الرسالة تطور، لكن لا على يد الجاحظ بل على يد عبد الحميد الكاتب، لأنه أول من أطال الرسالة وأول من أطال التحميدات ونوع فيها، وأنه أول من استعمل الفواصل... الخ، حتى إذا جئنا إلى عصر الجاحظ، لم يبق مجال للقول في موضوع الرسالة أو أسلوبها.

ما هو أثر الجاحظ في تطوير مفهوم الرسالة كعمل فني؟ وما الذي يميز الجاحظ عن بقية الكتاب المعروفين في هذا الصدد؟

قبل الولوج في هذا الموضوع لابد أن نحمل في أذهاننا حقيقة مهمة هي: أن النماذج التي تتوفر لدينا وندرسها كنماذج للرسالة الفنية عبر العصور الإسلامية الأولى، قبل الجاحظ، لا تعدو أن تكون رسائل ديوانية كتبها كتاب اشتغلوا في دواوين الرسالة الخاصة بالخلافة، وكتبت لحاجة رسمية باسم الخليفة أو من ينوب منابه؛ وأن هذه الرسائل كانت في أول أمرها تملى على الكاتب إملاء، ثم تطورت تطورا بسيطا فأعطيت للكاتب بعض حرية للتصرف في اختيار الأسلوب الملائم للموضوع المطلوب. وأن الرسائل التي ندرسها في العصر الأموي كنماذج للرسالة، ونسميها تجوزا : رسالة أدبية، هي - في الواقع- كتب رسمية يحاول بعض كتابها أن يظهر بواسطتها مهارته الفنية في توجيه عبارتها وتنظيمها العام؛ وهذا ما فعله عبد الحميد الكاتب، إن كان قد قام فعلا بكل ما ينسب إليه. فقد يكون عبد الحميد كاتبا موهوبا، لكنه كرس قابليته وموهبته لخدمة

الرسالة الديوانية؛ والمصادر لا تذكر شيئا في كتابة الرسالة يخرج على نطاق الشكل العام لها حتى وإن كانت لعبد الحميد رسائل إخوانية خاصة تتدفق حيوية وعاطفة.

فابن خلكان يؤكد على أن عبد الحميد قد مهد السبيل لكتابة الرسائل واتبعه في طريقته كتاب الرسائل من بعده... يقول: "وهو الذي سهل سبيل البلاغة في الترسل.. وهو أول من أطال الرسائل واستعمل التحميدات في فصول الكتب، فاستعمل الناس ذلك بعده.."[1] كما ينسب ابن خلكان إلى عبد الحميد مجموعا ضخما من الرسائل، يقول: إنها بلغت ألف ورقة. وقد كان هذا الأمر موضوع نقاش أيضا أداره الباحثون، وأثاروا حوله تساؤلات كثيرة. والمهم، إن ما وصلنا من رسائله لا يعدو بضع عشرة ورقة.

ويذهب البعض إلى أن ابن المقفع كان أسبق من عبد الحميد في هذا المجال، لكن صلة عبد الحميد بديوان الرسائل جعلته أشهر من سواه، وجعلت الناس يقبلون على كتاباته، فذاع صيته بذلك واشتهر[2] .

ومهما يكن من أمر فكل ما ينسب إلى عبد الحميد في فن الرسالة لا يخرج عن حقيقتين هما:

1- أن الرسائل التي تخصص عبد الحميد بكتابتها هي رسائل ديوانية لأنه نشأ في الديوان وتعلم أساليب الكتابة على أيدي كتابه، وأنه سخر جميع مواهبه الفنية في سبيل تطوير الرسالة الديوانية.

2- أن اهتمام عبد الحميد ينصب على (شكل) الرسالة، وذلك لضيق مجاله في اختيار موضوعها أو التصرف فيه كما يشاء، فيكون جهده منصبا على تحسين أسلوبها أو تطويره بقدر ما تسمح به موضوعاتها المعينة المحدودة.

ولا ينكر أن عبد الحميد قد كتب رسائل غير ديوانيه أيضا، إلا أنها لا تخرج في إطارها العام عن الرسائل الأخرى، بل هي قريبة منها حتى في نوع

موضوعها، كرسالته إلى الكاتب أو رسالته في الصيد أو رسالته المشهورة إلى ولي العهد – وهي بلسان الخليفة أيضا.

لقد أصبحت رسائل عبد الحميد منهجا لكتاب الدواوين من بعده، وكلما مر الزمن زادت شخصيته أهمية عند هؤلاء الكتاب، حتى نجد أنفسنا نواجه حقيقة تصبح أمرا مسلما به عند الكتاب المتأخرين ويتابعهم فيها – بعدئذ- دارسو النثر العربي، تلك الحقيقة هي اعتبار الرسالة الديوانية نثرا فنيا، تدرس أصوله عند كتاب الدواوين، ولذلك فالدراسات النثرية تعنى بالرسائل الديوانية وبدراسة فواتحها وخواتمها وأشكالها.. الخ، حتى العصور المتأخرة. ولابد أن بعض الباحثين في النثر الفني قد أحس بشيء من التجني على مفهوم النثر الفني وهو يدرس هذه القوالب التي نسميها – تجوزا – فنا. لكن لا خيار للباحث في هذا، وليس هناك من نماذج فن الرسالة الأدبية غير الرسائل الرسمية، وبشيء لا يغني عن الرسائل الإخوانية.

لكن الأمر يختلف حينما نأتي إلى الجاحظ، لأن الرسالة عنده تتخذ سبيلا أخرى، وبهذا تنتقص الفكرة القائلة: إن المترسلين في الأدب العربي هم كتاب الرسائل الديوانية. ولعل الموقف الحازم الذي اتخذه الجاحظ من طبقة الكتاب مظهر من مظاهر وعيه بهذه الحقيقة، فكأنه ينقض هذا الوهم الذي أوشك أن يصبح – منذ عصره – تقليدا متلزما به . فليس الكاتب عند الجاحظ بالضرورة كاتبا في ديوان الرسائل أو كاتبا عند الخليفة، وليس الرسالة وقفا على كتاب الرسائل الديوانية. ولذلك فالرسالة التي يقدمها الجاحظ لا تلتزم بقالب الرسالة المعروف، بل تخرج عنه خروجا جزئيا يدفع بها إلى المجال الأدبي والفكري الواسع. وهكذا يخلق الجاحظ نماذج جديدة تخرج الرسالة من المفهوم الضيق إلى الأفق العام الواسع.

لم يعمل الجاحظ في ديوان الرسائل أكثر من ثلاثة أيام في زمن الخليفة المأمون[3]، وما لبث أن ترك الديوان ليكون مؤلفا وكاتبا يختار طريقته بحرية. لكن الجاحظ لا يكتفي بالبعد عن الديوان بل يشن هجوما ساخرا على

الكتاب وأساليبهم وعلى طبيعة ثقافتهم الشخصية التي تمتاز – كما يرى الجاحظ – بالمظهر المعجب والمخبر التافه. ويلفت نظرنا إلى أن الأمثلة التي يأتي بها من الكاتب، شخصيات تعتبر من رواد النثر الفني – أو على أقل تقدير- فن الرسالة، عند أكثر دارسي أدب الرسالة. فسالم مولى هشام بن عبد الملك الذي تعده أكثر المصادر أستاذا لعبد الحميد الكاتب " كان أشد الناس غلطا وأضعفهم رأيا. وكان هشام يحضره فيسمع من ضعفه ويستميحه الرأي يهزأ به"[4].

أما عبد الحميد نفسه فقد" كان معلما، وبتحامله على نصر بن سيار، انتقضت خراسان، وزال ملك بني مروان"[5].

أما ابن المقفع الكاتب المعروف فهو في غزارة عمله وكثرة روايته "كما قال الله- عز ذكره- : كمثل الحمار يحمل أسفارا، قد أوهنه عمله وأذهله حلمه وأعمته حكمته وحيرته "[6].

فالجاحظ ينظر إلى الرسالة نظرة جديدة تأخذ بحرية الاختيار أولا،كما تأخذ نفسها بثقافة واسعة شاملة، وكتاب الرسائل الرسمية – في نظره – بعيدون عن هذا:

".... لا يحضر كاتب الرسائل لنائبة ولا يفزع إليه في حادثة فإذا أبرم الوزراء التدبير، ووقفوا منها على التقدير، طرحت إليه رقعة بمعاني الأمر ليسبق فيه القول، فإذا فرغ من نظامه واستوى له كلامه، أحضر له محررا فجلس في أقرب المواطن إلى الخليفة، وأمتع المنازل من المختلفة، فإذا انقضى ذلك، فهما والعوام سواء"[7].

وتنعكس نظرة الجاحظ بحرية الاختيار وسعة الثقافة في قولة له، جاءت وهو في معرض الحديث عن التنويع في الأدب والمعرفة، إذ يميز الجاحظ هنا بين صاحب العلم وصاحب الحرفة الذي يلتزم بنمط واحد من المعرفة، فيقول: "لأن النحوي الذي لا إمتاع عنده كالنجار الذي يدعي ليعلق بابا وهو أحذق الناس،

ثم يفرغ من تعليقه ذلك الباب فيقال له: انصرف. وصاحب الإمتاع يراد في الحالات كلها"[8] .

وكم بين صورة هذا النجار، وكاتب الرسائل الذي ذكره الجاحظ في الفقرة السابقة من شبه !

ومع هذا فقد وردت أقوال للجاحظ في (بيانه) تدل على إعجاب بأساليب الكتاب وطرائفهم؛ وكأن الجاحظ ينقص رأيه بنفسه، إذ يقول:

" قال أبو عثمان: أما أنا فلم أر قط أمثل طريقة في البلاغة من الكتاب، فإنهم قد التمسوا من الألفاظ ما لم يكن متوعرا وحشيا ولا ساقطا سوقيا...[9].

وأظن أن تفسير هذين الموقفين هو في تفاوت درجات الكاتب في عصره، فقد دخل في الكتاب جماعة وهم يجهلون أصول الكتابة حتى قيل عنهم: "الكتاب قليل والمتسمون بالكتاب كثير.." [10].

يضاف إلى ذلك أن الجاحظ كان يخشى أن تصبح الكتابة الديوانية مثالا يحتذى عند الناس، وهى على حال من افتقار في التنويع موضوعا وأسلوبا. إلا أن ذلك لم يمنع الجاحظ أن يتشبه في أول حياته الأدبية بمشاهير الكتاب المعروفين كابن المقفع أو سهل بن هارون، فيكتب رسائله بأسمائهم وينسبها إليهم، لتذيع بين الناس وتشيع[11]. والسبب هنا واضح ألا وهو إقبال الناس على هؤلاء لشهرتهم.

لكن الجاحظ – وهو يستعين بثقافة واسعة ومتنوعة، وبحرية في الاختيار – يخرج بالرسالة من نطاق الديوان إلى مجال واسع من الأشكال والموضوعات التي لم يجرؤ كاتب سابق عليه في إدخالها في الرسالة . ورسائله خطوة كبيرة نحو فن المقالة الذي يشيع فيما بعد في الأدب العربي.

وسأبين – قدر ما يسمح به المجال هنا – جانبين من جوانب هذا التطور في فن الرسالة عند الجاحظ؛ هما:

- جانب المضمون أو الموضوع.
- جانب الشكل أو الأسلوب.

1- المضمون أو الموضوع:

إن أول ما يلفت نظرنا في العدد الضخم من الرسائل التي كتبها الجاحظ، أنه لم يكد يترك موضوعا يخطر على بال دون أن يطرقه أو يدير حوله رسالته، فقد كتب الجاحظ كتبا وكتب رسائل ولا تختلف رسائله من حيث طبيعة الموضوع عن كتبه إلا بأشياء معلومة أهمها اقتصاره في الرسالة الواحدة على موضوع واحد في الغالب وعدم الميال إلى الاستطراد كثيرا أو الإطالة، بينما كانت كتبه موسوعات أدبية علمية، يطرق في الكتاب الواحد أشتاتا من الموضوعات.

لقد ادخل الجاحظ الموضوعات العجيبة في مضمون الرسالة بجرأة يحسد عليها، فلم تقتصر رسائله على الدين والفلسفة والاجتماع، بل لقد حاول إدخال موضوعات هي من صلب فنون الشعر وموضوعاته؛ حتى إذا جاء ليكتب في موضوعات طرقتها الرسائل قبله وعدت من صلب عملها نجده يتفنن فيها تفننا، فيخرج بها عن المألوف في كتابه الرسالة قبله. فهو يكتب – مثلا – رسالة في الشكر، يقصد بها تقريض وزير المتوكل وشكر نعمه لديه – كما يقول القلقشندي[12] - فإذا به يخرج عن موضوع الشكر إلى فلسفة الشكر ويصنفه إلى مراتب ويبحث في أصوله.

أو يكتب رسالة في المعاد والمعاش إلى محمد بن احمد بن غبي دؤاد فإذا به يفصل في أمور تتصل بفلسفة المعتزلة وكأنه يكتب بحثا في الموضوع؛ بل لقد أشار في الرسالة نفسها إلى انه جمع مادتها من تصفح مصادر الأوائل ودراستها، قائلا:

" ولم أزال – أبقاك الله – بالموضع الذي قد عملت من جمع الكتب ودراستها والنظر فيها، ومعلوم أن طول دراستها إنما هو تصفح عقول العالمين بأخلاق النبيين وذوى الحكمة من الماضين والباقين من جميع الأمم وكتب أهل

الملل، فرأيت أن أجمع لك كتابا من الأدب جامعا لعلم كثير من المعاد والمعاش اصف لك فيه علل الأشياء وأخبرك بأسبابها وما اتفقت عليه محاسن الأمم.... "[13].

فموضوع الرسالة يصلح أن يكون في مقالة أو كتاب، وهذا ما يمكن أن يقال عن أكثر رسالة التي بين أيدينا.

إن الأمر الذي هيأ للجاحظ أن يفكر في هذه الموضوعات المختلفة المتعددة الجوانب – حتى في رسائله القصيرة فضلا عن كتبه الضخمة له أسباب، من أهمها:

1- اتصال الجاحظ بالحياة العباسية بجميع مظاهرها السياسية والاجتماعية والفكرية، فتهيأ له الاتصال بشخصيات من العلماء والأدباء ممن اختلفت مذاهبهم وآراؤهم في المسائل، وكان لهم شأن في الخلافة العباسية. وكان اتصال الجاحظ بهؤلاء اتصال شخصيا، واتصال صداقة أو منادمة، أو اتصال طاعة المرؤوس. ولقد كتب الجاحظ أكثر رسائله موجهة إلى هؤلاء، ولذلك نجده يجعل الرسالة وسيلة من وسائل عرض الفكرة ومناقشتها والنظر العميق في الأمور. فيجتمع في رسائله موضوع المقالة إلى أسلوب الرسالة.

2- إن الجاحظ معتزلي بميله وعقيدته، والمعتزلة ترى طريقة النقاش والجدل وسيلة للتواصل إلى حقائق الأمور. والجاحظ لا يفوت فرصة دون أن يستغل هذه القابلية في نفسه وإلى ابعد مدى. ولقد اتبع سبيل المحاورة والخطاب، حتى وان اضطره ذلك إلى تخيل شخص يخاطبه أو يوجه إليه كلامه.

ولقد صورت لنا بعض رسائله صورا حية لما كان يدور بين المعتزلة وخصومهم من مجادلات تفصيلية، ولذلك يضعها بصيغة (قلنا له) و('قال لنا...) كما فعل في رسالته الموسومة (في خلق القرآن) التي دار فيها الجدل بين المعتزلة وابن حنبل.[14]

وهذا يقودنا إلى الحديث عن طبيعة تطويع الجاحظ لهذه الموضوعات.

3- الجاحظ بطبيعته وبميله أديب لا يلتزم طريقة معينة في الكتابة، وهو يتسامح مع نفسه في استعمال أي تعبير تقتضيه الفكرة التي يريد أن يؤديها،

وقلمه غزير موات لا يجبن أمام الفكرة بل يطاوعها بمرونة مدهشة. ولقد حاول ابن المقفع قبل الجاحظ أن يخضع العبارة للفكرة ولم ينجح نجاحا تاما، لأن ابن المقفع تعلم لغتين كانتا تستويان في منزلتهما من ثقافته الشخصية هما الفارسية أولا ثم العربية، فكانت احدهما تدخل الضيم على الأخرى عند التعبير أو الكتابة، فصعب أسلوبه وكانت عبارته تسلك مسلكا وعرا تظهر فيها آثار الترجمة بوضوح، وكثيرا ما يلجأ ابن المقفع إلى الأسلوب التعليمي المباشر الذي يؤدي به إلى استعمال الأمر والنهي في خطابه.

لكن ما فعله الجاحظ كان شيئا لقد استوعب الجاحظ شيئا عظيما من عناصر الثقافات الأجنبية ونقل وخلط بين مصادر عربية وأجنبية، فأدى ذلك إلى غزارة في المادة وتنويع في الحديث دون أن يشوب عبارته شيء من لغة أخرى، لأن الجاحظ – كما أرجح- كان ينقل عن أصول مترجمة من قبل غيره في الغالب، وقلما يترجم بنفسه.[15] فإذا نظرنا إلى عبارته نجدها تخرج على المألوف لأنها مثقلة بالمعاني الغريزة الناضجة، وقد لا تفي عبارة واحدة بالمعنى فيضطر الرجل إلى التكرار لكي يفي بحق تلك المعاني الجديدة على اللغة العربية، وهذا ما جعله في كثير من الأحيان يكرر المعنى الواحد بألفاظ مختلفة أو عبارات متوازنة، فهو في كثير من الأحيان يكرر المعنى الواحد بألفاظ مختلفة أو عبارات متوازنة. فهو يقوم بشرح أفكاره التي يجدها جديدة على الألفاظ والتعابير العربية .

ويقصد الجاحظ إلى استغلال قابلياته العقلية في توجيه الخطاب في الرسالة لكنك لا تحس بتلك التعليمية التي تمتاز بالأمر والنهي، وخير مثال على ذلك هذا الخطاب الذي يعاتب الجاحظ فيه محمد بن عبد الملك الزيات على غضبه عليه فيبدأ بتعريف الغضب وأسبابه فيقول:

"... ولولا أن الشيطان يريد ألا يخلو من عمله ولا يقصر في عاداته لما وسوس إلى الغضبان ولا زين له ولا أغراه ولا فتح عليه، إذ كان قد كفاه وبلغ أقصى مناه..."

وبعد حديث طويل في تحليل الغضب ودرجاته، يقول:

"... فلا تقف- حفظك الله- بعد مضيك في عقابي التماسا للعفو عني ولا تقصر عن إفراطك من طريق الرحمة لي. ولكن قف وقفة من يتهم الغضب على عقله والشيطان على دينه، ويعلم أن للعقل خصوما وللكرم أعداء، وإن من النصف أن تنتصف لعقلك من خصمه وتنتصف لكرمك من عدوه، وتمسك إمساك من لا يبري الهوى من الخطأ، ولا تتكر لنفسك أن تزل ولعقلك أن يهفو فقد زل آدم عليه السلام وهفا، وعصا ربه وغره عدوه وخدعه خصمه..."[16]

ولا تخفى الطبيعة الجدلية، والمقدمات ونتائجها في هذا القول.

ورغم أن الجاحظ قد وجه رسائله إلى شخصيات معينة كالزيات وابن أبي دؤاد والحسن بن وهب... الخ، لكن يبدو كأنه قد قصد أن يضع هذه الرسائل لطبقة أكبر من الناس، فموضوعاتها تصلح للمتعلم والمتكلم، وكأن الجاحظ يتخذ الرسالة وسيلة من وسائل عرض أفكاره وقابليته، ولذلك لن نكون بعيدين جدا عن الصواب إذا قلنا بأن رسائله فتحت الطريق إلى " فن المقالة" في الأدب، لأن موضوعاتها وطريقة عرضها تصلح لهذه الغاية.

على أن للجاحظ رسائل قد تشذ على كل مألوف في الرسالة أو المقالة ولعل أغرب هذه الرسائل رسالته التي وجهها إلى احمد بن عبد الوهاب وهي (التربيع والتدوير)، فهي شيء فريد بين الرسائل الأدبية لم يسبق الجاحظ إلى كتابة مثلها، بل لم يلحقه أحد في كتابة شبيهة بها إلا إذا نظرنا إلى جانب السخرية والنقد فيها وفي كل من رسالتي ابن شهيد الأندلسي (التوابع والزوابع) أو أبي العلاء المعري (الغفران).

فرسالة التربيع والتدوير جديدة في أسلوبها وموضوعها والقابليات التي تكشف عنها في كتابها فموضوعها – كما يدعي الجاحظ- هو رد الاعتبار

للعلم والمعرفة من إدعاء المدعين، لأن أحمد بن عبد الوهاب الكاتب المعاصر للجاحظ قد أدعى لنفسه ما ليس لها فاضطر ذلك الجاحظ إلى أن يكتب غليه هذه الرسالة يفضحه بأن يوجه غليه مسائل يعجز عن الإجابة عليها، فالرسالة هي عبارة عن جملة مسائل أثارت فضول الجاحظ وبعض معاصريه، وقد أجاب الجاحظ نفسه على قسط كبير منها في أماكن مختلفة من كتبه ومؤلفاته، ولذلك نجده يفخر على أحمد بن عبد الوهاب في الرسالة قائلا:

" وقد سألتك وأن كنت أعلم أنك لا تحسن من هذا قليلا ولا كثيرا فإن أردت أن تعرف حق هذه المسائل وباطلها وما فيها خرافة وما فيها محال، وما فيها صحيح وما فيها فاسد، فألزم نفسك قراءة كتبي ولزوم بابي وابتدئ بنفي التشبيه والقول بالبداء واستبدل بالرفض الاعتزال..."[17]

أما الفن الذي طعم به الجاحظ النثر العربي في هذه الرسالة، فقد كان معروفا كفن من فنون الشعر لا النثر، وأعني فن الهجاء... ولست أظن كتابا سابقا على الجاحظ قد تعرض لهذا الفن نثرا، بل الشائع في الأدب العربي أن الهجاء فن من فنون الشعر، هذا فضلا عن أن الهجاء في هذه الرسالة يمتاز على الهجاء في الشعر العربي بالميل إلى السخرية وتجنب السب والشتم المباشر الذي ألفناه في أدب النقائض مثلا.

فالهجاء في هذه الرسالة يعتمد على افتعال المناقشة وإظهار الاحترام الشديد الذي يدل على ضده، وعلى الجمع بين المتناقضات، التي لا يمكن أن تجتمع في مبادئ العقل والمنطق، لكي يتوصل من هذه السبيل إلى رسم صورة عجيبة تثير الضحك وتثير السخرية، لأن تشويه الصورة الواقعية للمهجو تعتمد على هذا المبدأ، وقد رأينا شيئا شبيها بهذا فيما بعد في هجاء ابن الرومي في الشعر العباسي.

فالجاحظ إذن قد فتح طريقا في الرسالة العربية لكي تتضمن شتى الفنون التي تعهدها من قبل، كل ذلك بأسلوب المخاطبة الذي نألفه عادة في كتابة الرسالة، مما يوحي باستعانة الجاحظ قصدا بهذا الفن الأدبي المعروف.

الأسلوب أو الشكل:

لقد نعتت مجموعة ضخمة، مما كتبه الجاحظ من مقالات قصيرة بنعت (رسالة)، ولقد ظهر لنا في الحديث عن موضوعات هذه الرسائل أنها لم تقتصر على صنف معين من الموضوعات، بل طرقت كل موضوع ممكن، على أن هناك أمورا تجمع بين رسائل الجاحظ والرسائل العامة، أهمها أنها توجه إلى شخص معين، ولذلك يقوم الجاحظ بكتابتها بأسلوب خطابي يوحي بأنها كتبت موجهة إلى شخص ما، فضلا عن افتتاحها بالحمد والدعاء وختامها به أيضا، والحمد ليس من أسلوب الرسائل وحسب بل هو مفتتح كل كتابة وفي أول كل مخاطبة، ولذلك لا يمكن أن نخص به الرسائل فقط، وقد قال الجاحظ نفسه في ضرورة الحمد بأن الله قد جعله مستفتح كتابه وآخر دعوى أهل جنته[17].

ومع ذلك، لم يلتزم الجاحظ في كل هذه الأمور قاعدة معينة، فأول ما يلفت نظرنا أن فاتحة الرسالة عنده كثيرا ما تستخدم كوسيلة للتعريف بالموضوع وكأنها عنوان أو تلخيص للرسالة التي يقدمها[18].

وقد يعدل الجاحظ بالدعاء عن جهته التي يقصد به إليها ويستعمله لغايات أخرى، كما فعل في مخاطباته لأحمد بن عبد الوهاب في رسالة التربيع والتدوير، إذ جعل الدعاء في أكثر ذكره له وسيلة لتوكيد سخريته، فهو يلهج بالدعاء مع السخرية ليزيد من أثرها، فيقول مثلا:

" قد- والله- عافانا الله بك وابتلى وأنعم بك وانتقم، فترحا لمن زهد فيك، وسقيا لمن رغب إليك، وويل لمن جهل فضلك، بل الويل لمن أنكر فضلك. إنك – جعلت فداك- كما لم تكن فكنت فكذا لا تكون بعد أن كنت، وكما زدت في الدهر الطويل،فكذا تنقص في الدهر الطويل، إذ كل طويل

فهو قصير، وكل متناه فهو قليل، فإياك أن تظن أنك قديم فتكفر، وإياك أن تنكر أنك محدث فتشرك"[19].

أو يقول مثلا:

"... قد وجدتك – جعلت فداك- خفت أن تكون ابن صائد ورجوت أن تكون الدجال، ولعلك دابة الأرض، وما أدري لعلك شوشي ولست بحمد الله الخضر..."[20].

أو يقول:

"... وليس حسنك- أبقاك الله- الذي تبقى معه توبة أو تصح معه عقيدة أو يدوم معه عهد... هو – أعزك الله- شيء ينقض العادة ويفسخ المنة..."[21]

وهكذا يمضي الدعاء في الرسالة، على هذا المنوال في مناسبات لا تحصى، وهذا الدعاء لا يزيد السخرية إلا شدة.

لقد كتب الجاحظ كثيرا من رسائله في سبيل الرد على آراء الفرق المختلفة وهو- وإن وجهها إلى شخصيات من رجال الدولة العباسية- أراد بها مجموعا أكبر من الناس- كما ذكرنا سابقا- ولذلك فأسلوب المحاججة والجدل هو الأسلوب الذي يختاره الجاحظ لهذه الرسائل، وقد يوجه الجاحظ الحجة إلى خصم معين، فيعرض رأي ذاك الخصم أولا، ثم يرد عليه بحجج المعتزلة التي يذهب الجاحظ مذهبها. وقد طغى هذا الأسلوب على الرسائل التي وجهها إلى الخلفاء العباسيين، سواء أكانوا ممن يؤيد الاعتزال- كالمأمون أو المعتصم- أم ممن ينقضه كالمتوكل. فرسالته في الرد على النصارى توجه إلى المتوكل، وكأن المتوكل قد فصل للجاحظ في ذكر حجج النصارى في كتاب سابق، ولذلك يكرر الجاحظ في الرسالة قوله (وذكرتم أنهم قالوا- أي النصارى-) أو (وزعمتم أنهم قالوا...) أو (وسألتم عن قولهم...) [22]، وأكثر رسائله في الفرق التي لها هذا الطابع الجدلي.

ومع ذلك لا نستطيع أن نلزم الجاحظ بأسلوب معين في جميع رسائله، ونكون على حق في هذا التعميم. فقد امتاز – قبل كل شي – بحرية واسعة في الاختيار، ولذلك فالموضوع أو الفكرة، هي التي تملي عليه أسلوبه بالدرجة الأولى، ولذلك تجيء بعض رسائله وكأنها شعر منثور، تضاهي الشعر العربي. فهذه رسالته في مدح النبيذ تحوي وصفا للخمر، قد لا نجده إلا عند أشهر شعراء الخمر، ممن شربها واختص بوصفها، يقول في وصف النبيذ:

"... فإن القدح الثاني أسهل من الأول، والثالث أيسر والرابع ألذ والخامس أسلس والسادس أطرب، إلى أن يسلمك إلى النوم الذي هو حياتك أو أحد أقواتك. ولا خير فيه إذا كان إسكاره تغلبا وأخذه بالرأس تعسفا حتى يميت الحس بحدته ويصرع الشارب بسورته ويورث البهر بكظته ولا يسري في العروق لغلظته ولا يجري في البدن لركوده ولا يدخل في العمق ولا يدخل في الصميم، ولا والله حتى يغازل العقل ويعارضه ويداعبه ويخادعه فيسره ثم يهره، فإذا امتلأ سرورا وعاد ملكا محبورا خاتله السكر وراوغه وداراه وماكره وهازله وغانجه..."[23]

ثم يعود إلى تفضيل النبيذ على سواه من الأشربة وتظهر هنا قابلية مدهشة على الوصف والتشبيه الذي لا يقبل بالقريب الظاهر بل يذهب إلى المعاني اللطيفة في العقل، وله طريقة جميلة في التشبيه يستعمل فيها فعل (أخذ) بدلا من أدوات التشبيه المعروفة، يقول:

"... وخير الأشربة ما جمع المحمود من خصالها وخصال غيرها، وشرابك هذا قد أخذ من الخمر دبيبها في المفاصل وتمشيها في العظام ولونها الغريب، وأخذ برد الماء ورقة الهواء وحركة النار وحمرة خدك إذا خجلت، وصفرة لونك إذا فزعت وبياض عارضيك إذا ضحكت، وحسبي بصفاتك عوضا من كل حسن وخلفا من كل صالح..."[24]

وهذا احتيال على المدح عجيب...

أما سخرية الجاحظ وروح الفكاهة والدعابة في أسلوبه، فحدث عنها ولن تلام، فمنها دعابة خفية وتعريض ظريف، ومنها صريحة جريئة . وقد نجد شيئا من مداعباته خلال الأحاديث والنوادر التي تنقل عنه، ولكن ما نجده في ثنايا أسلوبه من كتبه أو رسائله لا يعوض بالروايات التي تروى عنه، وخير مثال هذه الخاتمة الظريفة لهذه الرسالة التي يخاطب فيها الحسن بن وهب، الذي كان قد أهدى إليه شيئا من نبيذه، يقول:

"...وأنا رجل من بني كنانة، وللخلافة قرابة ولي فيها شفعة، وهم بعد جنس وعصبة، فأقل ما أصنع أن أكثرت لي منه (أي من النبيذ) أن أطلب الملك، وأقل ما يصنعون بي أن أنفى من الأرض، فإن أقللت فإنك الولد الناصح، وإن أكثرت فإنك الغاش الكاشح، والسلام"[25].

هذه إحدى عبقريات الجاحظ، الذي سيظل أدبه يشغل الناس في كل زمان، مهما أتى على الإنسان حين من الرقي والتطور في كل مجالات الحياة.

هـــوامـــش البحث:

1- ابن خلكان، وفيات الأعيان، دار صادر، بيروت، 1972، ج6، ص 394.

2- محمد كرد علي، مقالة في مجلة المجمع العلمي العربي (سنة 1929)،ج9، ص 513.

3- ياقوت الحموي، معجم الأدباء، تح: إحسان عباس،دار الغرب الإسلامي،بيروت، ط1، 1993،ج 6، ص 72.

4- الجاحظ، رسالة في ذم أخلاق الكتاب،في ثلاث رسائل، تح: يوشع فنكل، المطبعة السلفية، 1344ه، نشره المرحوم عبد السلام هارون،ج2، ص 47.

5- المصدر نفسه. ص46

6- المصدر نفسه، ص 44.

7- المصدر نفسه، ص 49.

8- الجاحظ، البيان والتبيين، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ج1، ص 403.

9- المصدر نفسه، ج1، ص 137.

10- عبد الله البغدادي، كتاب الكتاب، المنشور في مجلة : B.E.O.vol.XIV (1952-4)، دمشق، ص 153

11- الجاحظ، رسالة في فصل ما بين العداوة والحسد، مجموعة الجاحظ طبعة الساسي، ص 108- 109.

12- القلقشندي، صبح الأعشى في كتابة الإنشا، مطبعة تراثنا، ج 14، ص 173.

13- الجاحظ، رسالة في المعاد والمعاش، مجموعة رسائل الجاحظ، طبعة كروس و الحاجرى، ص 6.

14- الجاحظ، رسالة في خلق القرآن في مجموعة عبيد الله بن حسان، المتحف البريطاني (suppl.1129) ورقة 121 أ- 129 ب.

15- ينقل الجاحظ أحيانا شعرا بالفارسية أو عبارات فارسية، ويقوم بترجمتها إلى العربية (البيان والتبيين ج1، ص 142، 144) ولكن لا نستطيع مع ذلك أن ندعي إلمامه التام بالفارسية .

16- الجاحظ، في الجد والهزل، مجموعة رسائل الجاحظ طبعة كروس و الحاجري، ص 84.

17- الجاحظ، التربيع والتدوير، طبعة شارل بيلا، نشره عبد السلام هارون، ضمن رسائل الجاحظ، القاهرة، 1979، ص 97، فقرة : 189.

18- الجاحظ، رسالة الجاحظ إلى أبي الفرج الكاتب، رسائل الجاحظ طبعة السندوبي، ص 304

19- الجاحظ، أمثلة في رسائل: في بني أمية، أو في الجد والهزل، أو المعاد والمعاش، أو التربيع والتدوير وغيرها.

20- الجاحظ، التربيع والتدوير، ص 40، 41 الفقرة: 71.

21 - المصدر نفسه، ص 37، الفقرة: 65.

22- المصدر نفسه، ص 60، الفقرة 107.

23- الجاحظ، رسالة في الرد على النصارى، ثلاث رسائل (يوشع فنكل)، ص 11، 12، 25...الخ.

24- الجاحظ، رسالة في مدح النبيذ، رسائل الجاحظ طبعة السندوبي، ص 290.

25- المصدر نفسه.

26- المصدر نفسه، ص 291.